الفصل السابع
السلالات الأولى ومغامراتهم وبطولاتهم

كان السومريون قد أبدعوا نظرياتهم عن أصول الكون والإنسان. كما رأينا في الفصل السابق فقد ابتدع السومريون فكراً وفلسفة عن أصول الكون والإنسان، وجعلوا من الآلهة والإله شخصيات غيبية فوق إنسانية. ولكن معظمها قد تجسد بقوى الطبيعة. ورأينا أن أصول لغتهم قد أثار مشكلة أصولهم بالذات إلا أننا توصلنا إلى نتيجة مفادها أن لغتهم قد كانت من أصول غارقة فيما قبل التاريخ ولكن كثيراً من كلماتها باقية في العربية والأكادية. وأن حضارتهم ولدت في العراق وانتشرت في العالم القديم، وسنرى في هذا الفصل أن السومريين لم ينفصلوا يوماً عن مواطنهم جنوب العراق. وهنا ولد وترعرع أبطالهم ومغامراتهم.

وقد عبر السومريون عن جنتهم بكلمة أدن edin وتعني السهل، وهي عدن بالعربية، ويفهم أن جنتهم هذه تقع بين الدجلة والفرات، وللأسف أن النصين السومريين اللذين يتحدثان عن عصر ذهبي أو جنة أرضية، لا يشيران إلى أي موطن قديم أو سكن أولي للسوميين. والنص الأول هو عبارة عن مقطع شعري ملحمي يتعلق بـ انمركار Enmerkar والرب أراتا Arata اللذين سيأتي ذكرهما فيما بعد. ويتحدث هذا الشعر عن عصر بعيد حيث لا يوجد فيه أي حيوان متوحش، و«كان جميع الناس متفقين على تبجيل وعبادة انليل بلغة واحدة». وقد انتهت هذه الوحدة الجميلة، بتحريض من أنكي وإثارته العداوة نتيجة غيرته من انليل، ويحدث الاختلاط اللغوي وتختلف الألسن. هذه الفكرة أو الرواية، قد ذكر ما يشابهها في التوراة عند الحديث عن برج بابل الشهير[1].

(1)
S. N. Knamer. «The Babel of tongue, Sumerian Version« W. W. Halli (Ed.) Essays in Memory, of E. Spelser, New Haven, 1968, PP. 108 – 173.

أمـا الـنص الثـاني فهـو بدايـة ملحمـة أسـطورية مسـرحها فـي دلمـون وهـي (جزيرة البحرين والمناطق المحيطة بها) وبطلها هو الإله انكي والربة المقدسة نينخور ساج Ninhursag. وفحواها أن الإله أنكي قد جعل من دلمون مكاناً خصيباً، مفجراً فيها ينابع المياه العذبة، وخلقت نينخورساج أرباب الشفاء، الذي ولد منها انشاج Enshag الذي ذكر كإله تحت اسم انزاك Insak في كتابات عثر عليها في البحرين وقرب الكويت، وتصف السطور الأولى من الملحمة دلمون كبلاد نظيفة طاهرة و «ساطعة»، حيث لا يعرف الكبر والتقدم في السن ولا يعرف المرض ولا الموت فهي بلاد حيث:

«لا ينعق فيها الغراب،
ولا العصفور أتيدو.. أتبدو لا يصرخ..
والأسد لا يفترس..
والذئب لا يهاجم الخرفان...
ولا يعرف الكلب الوحشي، ملتهم العنزات...».

هل يعني هذا أن أصل السومريين قد كان في تلك الجزيرة الحلم؟ أم أنهم مروا فيها؟ لا شيء يدل على ذلك وخاصة ما يلي من الأسطورة. بل يمكن أن نلمس من وراء ذلك إشارة إلى المشرق وهو «بلاد الأحياء» بصورة تقليدية، يقابل الغروب «بلاد الموت» التي تتوافق وهيمنة السومريين الدينية على دلمون، حيث كان لهذه البلاد علاقة تجارية مزدهرة في زمن كتابة هذا النص.

والحقيقة أن السومريين قد عدوا بلادهم مركز العالم، وعدوا أنفسهم أحفاداً مباشرين لأول إنسان مخلوق، وقد استعملوا الرمز الكتابي كالام Kalam نفسه للدلالة على «بلاد سومر» وأوكو Uku «الشعب السومري». كما من المهم ملاحظة أن الرمز الكتابي، بلاد كور تعني جبلاً أيضاً ولكن قل أن استعملت إلا مرتبطة ببلاد أجنبية. وهكذا نرى بوضوح أنه يمكن للسومريين أن يكونوا أقدم السكان في حوض الفرات الأدنى، ولكن هذا لا يمنع من التعرف على تخيلهم لماضيهم الذي يعود إلى ما قبل التاريخ السومري.

2 . من «آدم» أول إنسان إلى الطوفان:

لقد رأينا أن السومريين والبابليين من بعدهم قد اعتقدوا بصورة عامة أن أول إنسان قد صُنع من الطين أو الصلصال كما هي الحال في التوراة، سفر التكوين، ويمكن أن نستنتج أن أسطورة أنكي ونينماخ وأشعار أتراخاسيس التي سنذكر بعضها فيما بعد، حيث يرد أن عدداً من الكائنات الإنسانية من الجنسين قد خلق بالطريقة نفسها. وكذلك الحال بالنسبة للمرأة الأولى. إلا أنه لا يوجد في الأدب السومري ما يمكن مقارنته بالرواية التوراتية عن جنة آدم وحواء الضائعة بسبب الخطيئة، ولكن هناك وثيقة رافدية وحيدة فيها بعض الشبه مع هذه الأخيرة، وهي ملحمة بابلية مكتوبة أو مؤلفة على ما يبدو في نحو الألف الثاني وهي ملحمة أدابا Adapa[2].

آ . ملحمة آدابا:

كان إيا / انكي قد خلق آدابا كنموذج للإنسان، وعد كواحد من الحكماء السبعة. وغدا كاهن معبد مدينة أريدو، حيث كانت وظيفته تأمين القوت إلى سيده وخالقه. وكان ذات يوم وآدابا يصيد في الفجر، وإذا بريح الجنوب «شوتو Shutu» تندفع بقوة كبيرة، وتكاد تغرق مركبه، فثار غضباً ونطق بلعنة، كان من آثارها المباشرة، تحطيم أجنحة شوتو، التي لا تهب بعد الآن على البلاد. إلا أن هذه الرياح قد كانت . وما تزال . ريحاً مهمة بالنسبة لجنوب العراق ووسطه، فهي دافئة ورطبة، وهي التي تعمل على إنضاج التمر المحصول الرئيس في المنطقة. ولهذا، عندما سمع الإله العظيم آنو ما فعله آدابا، فقد أخطره أن يحضر إليه على جناح السرعة، ويهرع إيا في الوقت نفسه، لنجدة خادمه، ويقول له إنه عندما سيصل إلى السماء ويقف على «باب آنو» سيقابل اثنين من آلهة النبات والخصب دموزي ونينجيشزيدا، وأن حركة غير مقصودة منه سببت «قتلهما»!.

---

(2)
ANET, PP. 101 – 103: R. Labat, Religion, PP. 287 – S. A. Picchioni, II Poemetto di Adaps. Budapest, 1981.

وأنه إذا ما تدثر بالحزن، وأظهر الندم، فسترضى هذه الآلهة عنه، وتبتسم له، بل وسترافع عن قضيته أمام آنو. وعندئذٍ فإن آنو سيعامل آدابا، كضيف وليس كمجرم. ووفق التقاليد الشرقية. فسيقدم له الطعام واللباس والزيت كي يمسح به جسمه ويضيف إيا على ذلك قائلاً:

«عندما سيقدمون لك خبز الموت فلا تأكله..

وعندما سيقدمون لك ماءاً زعافاً فلا تشربه..

ونصائحي هذه التي أعطيتك إياها لا تهملها..

وكلامي الذي أقوله لك أحفظه جيداً!!».

وقد مر كل شيء بسلام كما تنبأ به إيا، وزيادة على ذلك فإن آنو قد تأثر بتوبة آدابا، فلم يقدم له طعاماً مميتاً، بل «خبز الحياة» و«ماء الحياة». ولكن ويا للأسف فقد تبع أدابا نصائح سيدة بالحرف ورفض تقدمات آنو، التي كانت ستجعل منه خالداً. فكان قضاء الإله العظيم سريعاً أن:

«خذوه، وليعد إلى الأرض!».

ترى هل أخطأ إيا رغم حكمته المشهورة. أو أنه قد كذب عمداً على خادمه لسبب لا يمكن معرفته؟ إن الرواية الشعرية لا تقدم إيضاحاً حول هذه الأسئلة ومن الصعب توقع أي إجابة. ومهما كان الأمر. فإن طاعة آدابا العمياء وتنفيذه أوامر سيده بحرفيتها قد أفقدته حقوق الولوج إلى الخلود والأبدية، وهي حال آدم الذي فقدها أيضاً نتيجة عدم طاعته وعصيانه. وهكذا نرى أن الإنسان هو الذي حكم على نفسه بالموت في الحالتين.

ب . أنساب الإنسان واصل المُلكْ:

وهناك نص أقدم يمثل إحدى المناظرات الأدبية التي أولع بها السومريون وهي تبرز التعارض بين أشنان Ashnan ربة الحبوب ولاخار Lahar ربة الحيوانات، أو بصورة أخرى، التعارض بين الفلاح والراعي حيث ينتصر أشنان. ورغم أن الأشياء متباعدة في الزمان والمكان، فقد أراد بعضهم أن يكون أدابا هو آدم البابلي وأن هاتين الربتين هما معادلان لـ هابيل وقابيل، إن المقارنة هنا لا تستند إلى شيء. ولم يهتم

السومريون ولا الآكاديون ولا البابليون من بعدهم كما اهتم البدو اللاحقون بالتقاليد النَسَبية وقد حفظ ذلك لدى العرب الذين اشتهروا بعلم الأنساب أيضاً. ولكن نجد هذا الاهتمام في التوراة أو في العهد القديم حيث تذكر قائمة نسب تبدأ من آدم وحواء وتنتهي بأعقابهم في ذلك الزمن، ويرى الآكاديون وأسلافهم ومن قبلهم السوريون أن الآلهة لم تخلق الإنسان لخدمته وحسب بل تُحدد له تفاصيل ما يجب عمله من أجل خدمة طقوسهم بإتقان «وإن الإنسانية ليست في واقع الأمر إلا قطيعاً كبيراً وعديداً لابد له من أدلاء ورعاة وملوك كهنة أو كهنة ملوك اختيروا من قبلهم (أي الآلهة) لتطبيق الشرائع الدينية، ولا مشروعية في واقع الأمر سوى لهؤلاء. وهكذا ففي الزمن القديم، كما يعتقد أسلافنا القدامى، هبط «تاج الملك العظيم وعرش المملكة» من السماء، ومنذ ذلك الزمن، تسنمت مصائر البشرية سلسلة من الملوك، في بلاد سومر، وحكمت باسم الآلهة وعملت من أجل نصرتهم وعزتهم، وهكذا كانوا يبررون نظرية الملكية التي تتمتع بحقوق إلهية دامت في العراق طوال عهوده القديمة حتى نهايتها. ورغم ذلك هناك بعض العلماء ممن يعتقدون أن النظام السياسي السومري قد كان نظاماً «ديمقراطياً بدائياً» في وقت مبكر، وأن الملكية لم تظهر إلا في سياق مرحلة ما قبل التاريخ، حيث استولى قادة عسكريون . كانوا قد انتخبوا من قبل مجالس المواطنين لآجال قصيرة ووقت الأزمات . على السلطة وبقوا فيها إلى الأبد. لقد طور هذه النظرية مؤرخ الرافدين القديم الشهير . جاكوبسون[3] منذ عام 1943 . 1957 وهي تعتمد بصورة أساسية على معطيات إنسانية شكلية لديانة بلاد الرافدين (ولنتذكر انتخاب مردوخ للصراع ضد تيامات) وأخرى عرضية تستند إلى نصوص هزيلة بظن أنها تشير إلى وجود «مجلس سومري (كنجير)» في الألف الثالث. قد تكون هذه النظرية مستساغة لبعضهم إلا أنها تعتمد على افتراضات وليس على وثائق واضحة. فقد كان يوجد مجالس محلية في بلاد الرافدين وفي جميع العهود، وبخاصة

(3)

T . Jacbson. «Primitive demoncracy in ancient Mesopitamia». JNES 2. 1943, PP. 159 – 172; «Early Political dsevelopment in Messopotamia» Z A, 52, 1957 PP. 91 – 140; W. L. Moran (Ed.) Towards the Image of Tammuz Lombridge (Mass), 1970, PP. 132 – 156, PP. 366 – 396.

«مجالس الشيوخ» التي لعبت دوراً مهما في إدارة المدن والقرى. إلا أن هذه المجالس (أوكين Ukkin) لم تلعب إلا دوراً استشارياً على الرغم من أنها كانت تظهر بعض المعارضة ضد السلطة الملكية وممثليها[4].

لا ديمقراطية:

وهكذا فإننا لا نستطيع التحدث عن «الديمقراطية» بالمعنى الحديث أو الصحيح لها. كما لا يوجد أي أثر في الأدب السومري يدل على وجود هيئة أو حكومة عليا مارست سلطة جماعية. ومهما صعدنا في التاريخ أو هبطنا فيه، فلن نجد سوى عواهل وملوك وزعماء ورؤساء عشائر وربما يحملون ألقاباً أخرى، ولكن هناك شيء واحد مشترك بينهم هو أنهم آلهة في الحكم. ولحسن حظنا أننا قد عثرنا على لائحة أو قائمة[5] طويلة لملوك سومر منذ الأصول الأولي للملكية حتى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهي عبارة عن خمس عشرة لوحة طينية عثر عليها جميعاً في مدينة نيبور. ورغم عدم اكتمالها إلا أنها ذات أهمية بالغة. لأنها تعكس بعض ملامح عصر البطولة السومري من خلال معلوماتها الملحمية.

وطبقاً للمعلومات الواردة في القائمة ، فإن الملكية قد «هبطت في السماء» للمرة الأولى في مدينة أريدو هذه الإشارة المهمة تذكرنا بأن حفائر أريدو الأثرية قد قدمت لنا آثار أقدم بناء يفترض أنه من المرحلة العبيدية في بلاد الرافدين الوسطي (كما ذكرنا سابقاً). وبعد (64800) سنة حكم خلالها ملكان فقط في أريدو، تحولت الملكية إلى بادتبيرا Bad – tibiral حيث حكم ثلاثة ملوك سمي منهم «الراعي دموزي» ومجموع السنوات هو (108000)، ثم تتحول الملكية إلى لاركا. حيث حكم ملك مدة (28800) سنة، وفي سيبار حكم ملك (21000) سنة وفي شورورباك حكم ملك أو

---

(4)
La Voix de I'opposition en Mesopotomie, Bruxelles, 1973; Les Pouvoirs locaux en Mesopotamie et dans les regions adujccentes, Bruxelles 1980.

(5)
T . Jacobsen , The Sumerian King, Chicago, 1939.

اثنان مدة (18600) عام. تذكرنا هذه الأرقام الخيالية التي تهدف إلى إطالة عمر الملكية، بما جاء في التوراة عن طول عمر آدم وأعقابه التسعة، وقد بلغ سنوات حكمهم (241200) سنة في خمس مدن. وقد ورد في اللائحة عبارة أما أورو بااور – ama uru ba – ur وتعني «الطوفان قد مسح الجميع» فما معنى العبارة من حيث الواقع؟ هذا ما يتطلب منا أن نتطرق مباشرة إلى موضوع الطوفان، الذي أسأل الكثير من الحبر في القديم والحديث المعاصر.

3 . الطوفان العراقي الرافدي وطوفان الأديان:

آ . اكتشاف ملحمة جلجامش:

بينما كان عالم الآشوريات الشاب جورج سميت G. Smith يعمل في المتحف البريطاني عام 1872، ويقوم على تجميع وتلصيق الكسر الرقمية المسمارية التي عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال في نينوى شمال العراق، وقع هذا العالم في أحد الأيام، على نص يشبه، عند قراءته، رواية الطوفان الدينية التوراتية الواردة في سفر التكوين أولاً. وقد كان النص، في الواقع جزءاً من مجموعة نصوص ملحمية عرفت فيما بعد تحت اسم «ملحمة جلجامش»[6]، التي سنتحدث عنها أكثر تفصيلاً فيما بعد، فقد كان يدعى بطل هذه الملحمة جلجامش، ملك أوروك. وكان يسعى للحصول على سر الخلود، فيلتقي مع إنسان يدعى أوتانبشتيم Utanapishtim وكان هو الإنسان الوحيد الذي منحته الآلهة حياةً أبدية. وقد ذكرت هذه الشخصية في القائمة الملكية السومرية كابن لـ أوبار توتو Ubar – Tutu أول أو (الملك الوحيد) لمدينة شورويباك. وهذا هو ملخص الأسرار التي أؤتمن عليها من أجل الخلود.

---

(6) انظر حول موضوع الاكتشاف والمقارنات هذه المراجع والمصادر الأصلية منعاً لكل التباس معاصر وهي مرتبة كما يلي وفق تواريخ صدورها:

A . Parrot, Deluge et Arche de Noe, Neuchatel, 1953, et E. Sollberger. The Babylonian Legend of the Flood, London. 1971, 3e ed ; J. Bottero, «Le plus vieaux recit du Deluge». L'Histore, 31, 1981, pp. 113 – 120.

منذ قديم الزمان «عندما كانت الآلهة تسكن في شورويك»، فقد قررت أن تمتحن الإنسانية وتغرقها في طوفان عجيب. إلا أن إيا يشفق عليها ويتحدث إلى سكان شورويك من خلف الأسوار من موقعه في بساتين القصب، فيأمرهم بتدمير سكناهم وبناء مركب ضخم ووضع «كل ما هو حي» فوقه. ومنذ اليوم التالي، قام أهل المدينة بالبدء بهذا المشروع، وما هو إلا وقت قصير حتى انتهوا من بناء مركب ضخم من ستة أقسام، ومستعد لاستقبال السكان وثرواتهم من عمال وقطعان وحيوانات متوحشة. وعندما «اكفهرت السماء» دخل (نوح البابلي هذا) في سفينته وأغلق أبوابها حيث يقول الشعر الملحمي:

«ومع بزوغ فجر النهار، ارتفعت غيمة سوداء فوق الأفق»، معلنة بدء أكبر عاصفة هوائية، ومطرية ورعدية، وصواعق لم ير مثلها الإنسان من قبل. وانهارت السدود وسكور القنوات وغرقت الأرض في الدياجير، حتى الآلهة. خافت ولجأت إلى إله السماء آنو:

«لقد لبدت الآلهة كالكلاب، جاثين
أسفل الجدران.. وكانت إشتار تصرخ كامرأة..
في خضم العمل.. ».
«كيف سأتحدث عن هذه المأساة في مجمع الآلهة..
وأنا نفسي الذي خلقت شعبي؟ كيف سأجعل..
منه سمكاً يملأ البحار؟».

ستة أيام وست ليالٍ، والريح تصفر والعاصفة تكنس الأرض. وفي اليوم السابع، هذا كل شيء، وفتح أوتانبشتيم الطاقة وبكى نفسه: فقد تحولت الإنسانية إلى صلصال والأرض مستوية ولا يبدو منها سوى جبل نيصير Nisir [7] حيث تعلقت به السفينة. وبعد مضي أسبوع، أطلق حمامة ولكنها عادت، ثم أطلق سنونو ولكنها عادت أيضاً، وأخيراً أطلق غراباً حيث عثر على ما يقف عليه، ولم يعد، وخرج أوتانبشتيم عندئذ من

(7) اسم هذا الجبل، ربما كان موجوداً في إحدى قمم زاجروس في الزاب الأدنى شمال العراق ن ج ر و ص10.

سفينته وقدم شراباً في قمة الجبل وأحرق الأخشاب والأقصاب والأرز والآس أو الريحان كإشارة أضحية إلهية.

«فاشتمت الآلهة الروائح، واشتمت الآلهة.. الرائحة الزكية، فاجتمعت كالبعوض حول المُضحين».

وقد بدت إشتار فرحة، أما أن انليل الذي قرر إحداث الطوفان وفشل مخططه، قد أصبح غاضباً ومغتاظاً من إيا. إلا أن إيا يدافع عن قضيته جيداً، وكذلك قضية الإنسانية. فيتأثر بذلك انليل. فيدخل إلى السفينة ويبارك اوتانبشتيم وزوجته ويقول:

«... حتى الآن، لم يكن إوتانشتيم سوى إنسان،

ومنذ الآن فصاعداً، سيكون أوتانبشتيم وزوجته مثلنا.

نحن الآلهة..

ويقيم أوتانبشتيم عند مصب الأنهار».

ب . جمهور المثقفين البريطانيين والطوفانات الواقعية:

يمكن لنا أن نتصور مقدار البلبلة والاضطراب الذي أصاب الجمهور البريطاني آنذاك وكذلك بقية الأوساط المثقفة في العالم، ذلك أن التشابه واضح بين الرواية هذه والرواية التوراتية، حيث يمكن القول إنه لابد أن مؤلفي سفر التكوين لابد أنهم كانوا على إطلاع على الرواية الرافدية. من جهة أخرى، يوجد عدد من الإشارات التي تفيد أن الطوفان لدى البابليين والآشوريين هو حدث مهم يشكل حداً فاصلاً في مطلع تاريخهم. فكان من المنطقي آنذاك أن يلجأ العلماء إلى علم الآثار والسؤال فيما إذا كان قد بقيت آثار مادية من تلك الكارثة الأرضية التي يجب أن تتأثر بها مساحات واسعة من أرض الرافدين، ولذا فإنها قد تركت آثاراً قوية في ذاكرة الأقدمين.

ج . هل للطوفان من أثر واقعي؟

لم يعثر حتى الآن على آثار ترسبات طمي نهرية ناتجة عن طوفان كبير في بلاد الرافدين سوى في ثلاثة مواقع هي: أور، وكيش وشوروباك. (رو ص 108)، وتتضمن نصف الأربع عشرة بئراً اختيارية في أور، بعض تلك الترسبات. التي تؤرخ في عصر ثقافة العبيد، واعتقد ليونارد وولي مدير الحفائر آنذاك أن هذا أثر للطوفان التوراتي؟ ولكن لا شيء مؤكد يدل على ذلك وتؤرخ بقية الأسبار في عهود السلالات الباكرة نحو 2800 ـ 2600 وبعضها الذي يقع في كيش، ويعود إلى العهد السالف ذكره. أما في شوروباك فإن بعض الآثار قد تعود إلى نحو 2900.

إن وجود طبقات ترسبات نهرية يثير مشكلة الترتيب الطبقي لها. ولكنها تشهد على كل حال، بوجود طوفانات محدودة. ولكن لم يعثر على أي أثر لطوفان في المواقع الأخرى وبخاصة في أريدو (ج رور. ص108) والتي تقع في أثنى عشر كيلو متراً من أور. والتي حفرت حتى الأرض العذراء.

وهكذا يمكن التأكيد أن علم الآثار والحفائر التي تمت لم تقدم الدليل القاطع على طوفان عام وكبير، بل يمكن القول إن هناك طوفانات محدودة جرت في عهود مختلفة. فكيف لنا أن نفهم أهمية الآمارو amaru بالسورمرية وأبوبو abubu بالآكادية والهبوب والطوفان بالعربية؟.. وما هو واقع الطوفان في التقاليد الرافدية والعربية فيما بعد؟

بعد اكتشاف جورج سميث لبعض قطع كتابية من ملحمة الطوفان آنفة الذكر، فقد تم العثور على نسخ أخرى أو روايات أخرى عن الطوفان. وهكذا يوجد الآن نسخة سومرية عن الطوفان لكنها مهمشة جداً وبطلها زيو سودرا Ziusudra وهو يعادل أوتانبشتيم سابق الذكر. وتذكر نسخة مكتوبة بالآكادية عام 1600 ق.م أن البطل الناجي من الطوفان يدعى أتراخاسيس «حكيم الحكماء»، وهو الآخر يتطابق مع زيو سودرا وأوتانبشتيم. وهي قصيدة طويلة وسليمة إلى حد ما وتدعى بالآكادية البابلية أنوما إيلوا ويلوم inuma ilu awilum، وعندما كانت الآلهة بشراً». وهي ذات أهمية كبيرة لأنها تكشف لنا عن أسباب الطوفان، الذي لا تذكر عنه ملحمة جلجامش أية كلمة، وبذلك قدمت لنا قصيدة أتراخاسيس أحد مفاتيح السر.

د . خلق الإنسان والطوفان البشري:

تبدأ الرواية في يوم كان فيه الآلهة منهمكين تعباً من جراء عملهم في الأرض، وكانوا يتشكون بمرارة. ووصل الأمر ببعضهم إلى حد الثورة والعصيان والاضراب، وإحراق أدواتهم. عندئذ اقترح (إيا) خلق الإنسان «كي يضطلع بأشغال الآلهة القاسية، وكان الجواب على هذا الاقتراح بالإيجاب إجماعاً من قبل الآلهة. ولكن كيف يخلق هذا الكائن؟ لابد من التضحية بإله ما، وكان أن اختير أحدهم ويدعى (وي) We (ولربما كان هو مثير العصيان والثورة)، ويجبل الطين بدمه، وتقوم الربة مامي Mami المعروفة بـ نينتو Nintu أيضاً بتكوين أول إنسان من تلك الجبلة، وتقوم ربات مولدات أخريات بجبل سبعة رجال وسبع نساء، ويأذن بالتوالد والتكاثر. ولكن وآسفاه:

«لم يمض ألف ومئتا سنة حتى اتسعت رقعة البلاد وتضاعف البشر وهاجت الأرض وماجت كالثور... ».

وقد منع هذا الضجيج (أو ربما الثورة) الإله انليل من النوم. فما كان من الآلهة، كي تقضي على ضجيج وصخب هذه الكائنات المزعجة إلا أن أطلقت عليها الوباء، ثم جفافاً عظيماً، ولكن بلا فائدة، لم يتوقف الناس عن التكاثر، حتى عندما يجوعون، إلى درجة أكل لحوم أطفالهم. عندما قررت الآلهة أن تضرب بقوة، وأن تبعث بطوفان عظيم. ولكنها لم تكن تعلم أن إيا قد أنذر صديقه حكيم الحكماء، ونجح بإنقاذه.

هـ . الطوفان والانفجار السكاني:

إن وصف الطوفان في قصيدة أتراخاسيس قريب مما قرأناه أعلاه، لكنه وللأسف غير مكتمل بسبب تكسير غير مناسب للوحة. على كل حال، تبدو لنا النهاية، واضحة وهي ما يجب معرفته لأن إيا يبدو كبشر ومصاباً بالعقم، وبموت الأطفال والعزوبية كي يعمل ضد التكاثر السكاني[8] . ويقول في النهاية ما مي/ نينتو:

---

(8) يجب أن نلاحظ أن فكرة التزايد السكاني هي مسألة نسبية تتعلق بكمية الانتاج. يمكن الرجوع إلى مزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع إلى:

A . D. Kilmer, «The Mesopotamian concept of overpopulation and its solution erected in mythology ». Orientalia, 41, 1972, PP. 160 – 177.

«آه.. يا ربة الولادة، خالقة المصائر.

ليكن بين الناس عاقرات ومنجبات..

وليكن بين الناس الجني باشيتو Pashittu

وليمسك بالطفل في حضن أمه..

ولتكن هناك كاهنات أجبابتو Ugbabtu وكاهنات أنتو entu وكهان إيجيسيتو igisitu ... حيث يصيرن محرمات... وبذلك يتناقص المواليد.. ».

يبدو أن الآلهة قد استخدمت الطوفان كوساطة نهائية وأخيرة لوضع حد «للانفجار السكاني». لقد كان ذلك «الحل النهائي» بوسائط طبيعية، هي ما خطرت ببال الكاتب الرافدي آنذاك، وهو أمر طبيعي، عندما نعلم حجم الدمار الذي يسببه طوفان نهري كبير أو عاصفة مطرية كبيرة. ولماذا نبحث في أعماق التلال عن آثار كارثة أرضية محتملة، عندما يكفينا الخيال وحده، كي نتصور تلك الظاهرة الطبيعية التي تحدث في كل وقت (ج ر و ص 109). وتثير مشاعر إنسانية متشابهة[9].

و . المعاني المقيتة للطوفان:

بقي إذاً مشكلة الطوفان المذكورة في القائمة الملكية السومرية، كظاهرة طبيعية محددة في الزمان والمكان الرافديين والذي اعتبره الكتاب ظاهرة تاريخية أيضاً. فلماذا يذكر «الطوفان» هنا وماذا يمثل؟ أيمكن لنا أن نأخذ معنى الكلمة «طوفان» بالمعنى المجازي، طوفاناً أخلاقياً مثلاً؟ أو طوفاناً بشرياً متمثلاً بالتسرب الكثيف للبدو وغيرهم من آكاديين أول أسلاف للعرب، في الأراضي والمجتمعات السومرية القديمة. إلا أن العلاقات التي ظهرت لنا بين الطرفين لا تبدو لنا أنها ناتجة عن أعمال عدائية، فالفرضية هنا مستبعدة، من جهة أخرى يمكن إيراد أربعة معطيات تدل على حوادث أخرى وهي:

---

(9) راجع من أجل جميع الإشارات إلى الطوفان في النصوص السومرية والآكادية:

W . G. Lambert, A. R. Millard, Atق a – hasis , The Bolyonion Story of the Flood, Oxford, 1969, pp. 25 - 28.

1] . يدل الطوفان المذكور في قائمة الملوك السومريين، على نهاية هيمنة مدينة شوروباك على مجموع دول . المدن السومرية.

2] . إن بطل رواية الطوفان في النسخ الثلاثة المعروفة في بلاد الرافدين هو ملك أو أمير من شوروباك.

3] . تمثل شوروباك مركزاً ثقافياً كبيراً في الألف الثالث قبل الميلاد، يشهد على ذلك مجموع ألواح فارا Fara المسمارية المعروفة من قبل علماء السومريات.

4] . لقد عُثر في موقع شوروباك الأثري (تل فارا) على آثار طوفان مهم في بداية عهد السلالات الباكرة. (ج ر و ص110). فمن غير المستبعد إذاً أن يتزامن حدوث الطوفان مع هزيمة أو كارثة عسكرية في نحو (2900 ق.م)، مما أفقد شوروباك تفوقها على باقي المدن. وأن اجتماع هاتين الكارثتين (لابد وأنه عُزي إلى إرادة إلهية) قد دفع بالكتاب المحليين إلى تسجيله وربطه بسلالة شوروباك وقائمة الملوك السومريين المعروفة.

ز . خاتمة: طوفان السكان:

ترى هل يمكن الذهاب بعيداً في هذه المعطيات وتعميق فرضية الطوفان الحقيقي . الطبيعي مع الكارثة الاجتماعية العسكرية، بأخرى سكانية، أي أن زيادة السكان قد زادت في وقع المأساة فوجد كهان مدينة شوروباك جميع مقومات رواية دينية تعليمية إرشادية وعظية نقرأها اليوم في قصيدة اتراخاسيس. وبذلك يجتمع الطوفان الطبيعي والطوفان الأسطوري في أسطورة ثالثة موحدة، تمثل ثقافة الخيال الإنساني الأولى وفكر ورد فعله على القوى الأعتى منه. وقد تحول هذا الأدب ونقل فيما بعد من قبل جميع أحفاد تلك الحضارة، وإذا بنا نقرأ عن الطوفان في التوراة العبرانية ثم ينتقل ذلك إلى التراث المسيحي الآرامي ومن ثم إلى التراث العربي الإسلامي. وما يزال الطوفان وسحر روايته يتدفق علينا بما هو إيجابي وآخر سلبي، فلنكن على حذر!.

4 . السلالات البطولية والإلهية وتأريخها:

تقول لائحة الملكية السومرية: «وبعد أن مسح الطوفان كل شيء» «وعندما هبطت لملكية من السماء (مجدداً)، فقد قامت الملكية في كيش». وتقع هذه المدينة المقدسة الشهيرة شرق بابل على بعد اثني عشر كيلو متراً تقريباً وهي اليوم عبارة عن مجموعة تلال أكبرها تلان هما احيمير Uhaimi r وإنغارا Ingharra (01روص110) وتقع في وسط سهل حيث يتقارب النهران الفرات الدجلة. ونلمس في الواقع أن جميع مدن العراق القديم قد استقامت وبنيت في هذا السهل المتوسط بين الشمال والجنوب، وتلاها فيما بعد جميع المدن في العصور الوسطى والحديثة.

آ . التأريخ التقريبي للسلالات:

ونعثر في هذا السهل على آجاد /آكاد/ Agad ثم بابل، ودور كوريجالسو Kur Kurigalzu – ، وسلوقية Seleucie، وطيسفون Ctesphon، وبغداد، ويدعو السومريون هذه المنطقة بـ أوري Uri، والآكاديون آكاد. وقد كشفت حفائر فرنسية محدودة عام 1912 وأحد عشر موسماً تنقيباً انكليزياً أمريكياً (1923 . 1933) في كيش عن آثار سكنية تبدأ منذ عصر العبيد حتى القرن الخامس من عصرنا.

إن بدء قائمة ملوك سومر أصلاً، بسلالة كيش الأولى يشير بوضوح إلى الأهمية التي تكتسبها في عيون الرافديين. وتنسب القائمة لها ثمانية وعشرين ملكاً، وزمن دام «24510 عاماً وثلاثة أشهر ويومين ونصف!». وهو ما نستطيع أن نختصره إلى مئة وخمسين أو مئتي سنة فقط، ومما تجدر الإشارة إليه في قوائم الملوك تلك أن اثني عشر من بينهم يحمل أسماء آكادية، مثل كالبوم Kalbum «كلب» قالوموم Qalumum «حمل» وزوقاقيب Zuqaqip «عقرب» وهي مستوحاة من أسماء النجوم والكواكب.

بينما يحمل بقية الملوك أسماء سومرية. وهكذا نعثر هنا على أول ذكر لأسماء آكادية بعدد وفير في هذه المنطقة بالإضافة إلى السومريين. ونعلم أن هذه المنطقة سكتون مركز الامبراطورية الآكادية خلال ثلاثمائة عام. وفي هذه الدلتا أو العنق الذي

يعد ممراً وليس حاجزاً عُرقياً قد ازدهرت الحضارة السومرية، وانطلقت منها لتنتشر على طول الفرات والدجلة حتى سورية الشمالية بدءاً من بداية الألف الثالث، إن لم يكن قبل ذلك.

وهناك أسباب قوية للاعتقاد بتأريخه سلالة كيش الأولى، ويمكن أن نؤرخ، دون شك، بين 2900 . 2700. ورغم ذلك يبدو أحد ملوكها «إتانا» Etana الراعي، وهو الذي صعد إلى السماء، في اللائحة الملكية كشخصية أسطورية، مع أن وصفه التالي أنه «هو الذي ركَّن البلاد» يستدعي التفكير بقيامه بعمل سياسي حقيقي. ولحسن الحظ فقد عُثر على «ملحمة إيتانا» الرائعة في الأدب البابلي اللاحق، الذي قدم لنا تفصيلات أكثر وضوحاً حول ذلك الصعود السماوي السحري[10].

ب . النسر وإيتانا في السماء:

تبدأ الأسطورة بحكاية خرافية، عن حية ونسر كاسر كانا يعيشان بجيرة طيبة في شجرة واحدة، يتعاونان ويتقاسمان لقمتهما، إلا أن النسر انحرف ذات يوم والتهم صغار الحية، التي تهرع باكية شاكية إلى الإله الشمس (شمش) الذي ينصحها بدوره، أن تنصب كميناً لذلك الطائر الشرير. وتهرع الحية وتختبئ وسط بقرة ميتة، وعندما يقترب النسر من قطعته المفضلة وهي «الدهون التي تغطي الأمعاء»، تلتف حوله، وتنتف ريشه وتلقي به في حفرة، حيث يموت شيئاً فشيئاً بسبب الجوع والعطش. حينئذٍ ظهرت شخصية تدعى إيتانا الذي لم يكن لديه أطفال وراح يبكي شمش كي يساعده للحصول على «الشجرة التي تنجب الأطفال» التي لا تعيش إلا في السماء. وقد ارتأى شمش الذي أخذته الرحمة به، أن ينتشل النسر من حفرته، ويكسب صداقته، ومن ثم يستخدمه كوساطة كي يصعد إلى الفلك. واتبع إيتانا هذه النصيحة خطوة خطوة، وتعلق بصدر أجنحة النسر، وطار في الفضاء. وتضاءلت الأرض من تحت بصره بالتدريج حتى صارت حديقة صغيرة، وبدا البحر كقادوس، وبعد قليل لم يعد يرى شيئاً، أخذه الخوف

(10) Anet3, PP. 114 – 118; R. Labat. Religuins, PP. 294 – 305.

والرعب وصرخ: «يا صديقي، لم أعد أريد أن اصعد إلى السماء!» وأفلت منه وهوى.. فتبعه النسر وأمسك به ثانية. وللأسف أن اللوح قد تهشم في مكان حرج، إلا أن مغامرة أيتانا تنتهي باستيلائه على الوصفة السحرية، ذلك أن كان له ابن يدعى باليخ Balih أو بليخ (النهر المعروف شمال سورية حتى اليوم) والذي خلفه، وفق القائمة الملكية، بعد أن حكم ألفاً وخمسمائة وستين سنة. ويبدو أنه درس هذه الخرافة (التي تذكرنان بقصص ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، وكذلك ما جاء في أساطير الإغريق) هو أن الملكية لا تنتقل من الأب إلى الابن إلا بمساعدة الآلهة. وتفيدنا القائمة الملكية السومرية أن آخر ملك في سلالة كيش الأولى وهو آجّا Agga أو أكّا Akka قد كان هُزم من قبل أول ملك من سلالة أوروك الأولى، ونعلم الآن أن السلالتين قد تزامنتا وأن آجا قد كان، في النتيجة، معاصراً لخامس ملك لأوروك وهو جلجامش، (رو ص 112). وقد استخلصنا هذه المعلومات من شعر سومري قصير، حيث نرى آجا المندفع وقد بعث بإنذار إلى جلجامش طالباً إليه أن تخضع أوروك إلى كيش. وقد رُفض الإنذار هذا، فحوصرت أوروك، ولكن ظهور جلجامش على الأسوار، فإن جيش كيش قد اضطر لفك الحصار. ويتصالح الملكان في النهاية ويعم السلام. فإذا ما سلمنا بمعلومات القائمة الملكية السومرية الحرفية، فيجب أن نقبل أن كيش قد مارست بعض السيطرة، على الأقل شكلياً، على بلاد سومر (باستثناء أوروك وربما بعض المدن الأخرى).

ج ـ سلالات سومر والعلاقة مع إيران:

خلال عديد من السنين، وقبل أن تلعب أوروك هذا الدور. ومع أن الملوك الأربعة الأوائل من سلالة أوروك الأولى[11] كانوا محدودي السلطة، إلا أنهم كانوا شخصيات مرموقة. حيث تقول القائمة عن أولهم الذي يدعى ميسكياجاشير Meskiaggasher قد كان ابن الإله الشمس أوتو Utu وأنه «كان قد ذهب إلى البحر وخرج منه ليكون الجبال» وتقول عن الثاني انمركار Enmerkar أنه هو الذي بنى مدينة أوروك. وتصف

(11) إن ترقيم السلالات هذا لا يعني أن الملوك قد حكموا جميعهم أباً عن جد، وإنما جاؤوا بالتسلسل. وهو أي هذا الترقيم ليس إلا ترقيماً عملياً لتسهيل معرفتها للقارئ والمؤرخ.

الرابع لوجال بندا Lugal banda أنه «قديس مؤلَّه» وأن الرابع ليس إلا الملك دموزي الثاني الملقب بالصياد. وقد أصبحنا نعرف مآثر هذين البطلين ونصفي إلهين، بفضل أربعة مقاطع شعرية ملحمية سومرية تتحدث عن «دور انمركار» و «دور لوجال بندا». (رو ص 113 و377 رقم26). هذا وإن الموضوع الرئيس لهذه الأشعار هو العلاقات السياسية والدبلوماسية والتجارية الجيدة أو المتقبلة بين أوروك وأراتا Arata وهي بلاد بعيدة يفصلها عن سومر «سبع جبال» هي بلا شك في إيران. وقد حكمت هذه البلاد من قبل كاهن . ملك محاط بكبار الموظفين (الذين أعطوا ألقاباً مماثلة لما هو معمول بهم في بلاد الكاتب السومري) فكانوا يعبدون ربة عظيمة (مشبهة بـ إنانا) وإله . راعٍ (مشبه بـ دموزي).

وكانت تلك البلاد غنية بالفضة وجميع أنواع الحجارة، ولكنها فقيرة بالحبوب وتدور جميع الأحداث حول المصاعب التي يواجهها ملوك أوروك للحصول على تلك الثروة، والممارسات والمخاتلات التي يمارسها عواهل (أتراتا) عليهم. وإذا ما كان لهذه الرواية الملحمية من أساس صحيح . وهو قل أن نشك فيه . فإنها تقدم لنا الشاهد المبكر للعلاقات . الصعبة غالباً . التي كانت قائمة بين الرافدين والشعوب الجبلية الإيرانية، وبخاصة، مجموعة الممالك التي اعتدنا على تسميتها بلاد عيلام.

د . جلجامش كملك حقيقي:

وهكذا نصل إلى الملك الخامس لمدينة أوروك من السلالة الأولى ألا وهو جلجامش، الذي لا تخبرنا عنه القائمة الملكية بشيء، سوى قراباته، رغم أن مآثره العظيمة أثرت في معظم الآداب الإنسانية اللاحقة بدءاً من الأوليس وهرقل Ulysse, Heracles الإغريقيين وانتهاءً بالكتب الدينية المقدسة. ولكن ولحسن الحظ أننا علمنا من مصادر أخرى أنه كان من أكثر الأبطال الرافديين شعبية. فقد تساوى مع نرجال Nergal أحياناً، واعتبر كإله للجحيم، وقدمت له العبادات. وقد شخص، بصورة عامة، بهيئة رجل عارٍ أو مكتس، وهو يكاسر الحيوانات المتوحشة أو منتصراً على العملاق خوواوا، وعثر على مشخصاته ونحته هذا، في الأختام الاسطوانية الباكرة، وعلى

عدد من الأنصاب وتزيينات القصور الآشورية. وكما كان الأمر بالنسبة لـ انمركار ولوجال بندا، فقد كان لـ: جلجامش دوره في الملاحم السومرية، التي وصلنا منها خمس بصورة سليمة تقريباً. وهي ملاحم مستمدة ومدموجة مع أخرى سبقتها دون شك وألهمت المؤلف الآكادي القديم قصيدة شعرية مطولة سطرها في اثنى عشر لوحاً، وفي وقت مبكر من أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. وقد عُدلت وكتبت من جديد أكثر من مرة، فيما يلي من الزمن، وهي ما عرفت تحت اسم ملحمة جلجامش. وبما أن هذه الملحمة تشكل أول إبداع شعري سومري إنساني برأي الجميع، وهي قمة الأعمال الأدبية الرافدية القديمة، فإننا سنقدم هنا ملخصاً عن محتواها، مبتغين تحريض القارئ على قراءة إحدى ترجماتها العديدة من لغتها الأصلية إلى معظم لغات العالم الحاضر[12].

هـ . قصة ومضمون ملحمة جلجامش:

إبن الإلهة نينسون Ninsun ونصف الإله لوجال بندا، كان هو جلجامش الجميل الذكي «الأقوى من جاموس»، إلا أنه كان يحكم أوروك كطاغية. وكان قد جنّد جمعاً غفيراً من الشباب لبناء الأسوار المحيطة بمدينته . يبلغ طولها 9,700 كيلو متر وهي تحيط، حتى اليوم، بخراب الوركاء . كما كان للملك «حقوق إلهية» يمارسها على الفتيات المقدمات على الزواج، فكان ذلك وغيره مثار غضب واحتجاج من قبل سكان الوركاء، فراحوا يشكون أمرهم أمام الإله آنو، الذي أمر، على الفور، الربة المولدة أرورو Aruru أن تخلق إنساناً مشابهاً لجلجامش «حتى يتقاتل الواحد مع الآخر، وتعيش أوروك بسلام»، وتذهب أرورو إلى البادية، وتشكل هناك ومن الطين الصلصالي انكيدو، الجسيم المشعر الفظ القريب جداً من الحيوان:

---

(12) ترجمت ملحمة جلجامش من الأكادية إلى أكثر من خمس عشرة لغة معاصرة. من بينها العربية. وأفضل الترجمات العربية ترجمة طه باقر، ملحمة كلكامش. أما الترجمات الأساسية الأكاديمية باللغات الأجنبية وفق التسلسل الزمني فهي:

G. Conteneau. L'Epopee de Gilgamesh, Paris, 1939; A. Heidel, The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels, Chicago, 1949, 2e, ed; R. Labat, Religions, PP. 145 – 226; A Schott, W. von Soden, Das Gilganesh Epos, Stuttgart, 1970, 2e ed; A; Speiser , A. K. Gryson ANET3. PP. 72 – 79. PP. 503 – 507; Malbran. Labat, Gilgamesh, Paris, 1982.

«إنه لم يعرف الإنسان ولا البادية المتحضرة..

وكان يلبس مثل شاكان Shakkan (شاكان إله القطعان الذي يرتدي الجلد، فكان انكيدو يلبس مثله).

وكان يرعى العشب مع الغزلان،

وهو بثيابه يغترف الماء من الينبوع،

ويتراكض إليها مع الحيوانات الوحشية».

وذات يوم، يلمح صيادٌ أنكيدو من بعيد، ففهم من كان يدمر أفخاخه دائماً، وطرائده تهرب منه دون توقف. فينقل ما حدث معه إلى جلجامش، الذي يقرر أن ينصب لهذا المتوحش فخاً من نوع خاص! فيرسل عاهرة إلى البادية مهمتها إغواء آنكيدو، وتدجينه إلى حياة الحضر. ولم تتوان المرأة عن القيام بمهمتها دون عناء. وبعد أن تبادلا الحب «ستة أيام وسبع ليال» أراد أنكيدو أن يلحق بقطيعة، ولكن الحيوانات تهرب، وتنهك قواه دون جدوى، فتمسك بيده قائلة:

تعال.. «سأصحبك إلى أوروك . المكان الواسع...

إلى المعبد العجيب مقام آنو..

إلى حيث يقيم جلجامش، ويصنع الروائع..

وأنت، إنك نظيره...

وكنفسك ستحبه».

وهذا هو أنكيدو في أوروك وقد اعتاد بسرعة على التحمم، والتعطر والترقش بجميل الثياب، والارتواء من أثمن الشراب. ولكن عندما يعلم أن جلجامش يتهيأ ليحظى بعروس شابة، قام ضده ساخطاً، قاطعاً عليه الطريق. ويتصارع الجسدان بعنف، وتنتهي المعركة بتقدير واحترام متبادلين، فقد عثر جلجامش على رفيق مناسب، ووجد أنكيدو معلماً. «ويتعانقان ويعقدان الصداقة».

وقد رغب جلجامش أن يقوم بمغامرة متميزة «ويصنع له شهرة»، فأقنع صاحبه أنكيدو أن يرافقه إلى غابات الأرز البعيدة، معاش العملاق الجبار خواوا «ذو فم من نار،

وأنفاسه هي الموت». ويشحذ الاثنان الصديقان سلاحهما وينطلقان برحلة خلال ثلاثة أيام، وهي تستغرق ستة أسابيع عادة، ويصلان إلى الهدف:

«ويبقيان ساكنان على أطراف الغابة...

وكان الأرز يملأ المكان بعلوه الشاهق..

وظلاله الرقيقة، وعطره العابق في الخلاء..».

وغافلاً حارس الغابة، وتسللا في الأماكن المحظورة، وباشر جلجامش بقطع شجرة بعد أخرى عندما داهمه خواوا غاضباً، الذي كاد أن يمزق الصديقين لولا تدخل شمش ونجدته، مهيجاً ضده ثمانية أنواع من الريح العاصفة، فيشله، ويعترف خواوا بهزيمته ويستسلم. إلا أن جلجامش وانكيدو يقيمان ضده حد السيف، فيقطعان رأسه ويحملانه منتصرين إلى أوروك.

وتقع إشتار نفسها في حب جلجامش بعد تلك المأثرة، وتقدم نفسها له. إلا أنه يعلم مآربها. فراح يذكر الربة الغادرة بمصير عشاقها الكثيرين، ابتداء بتموز الذي نذرته للنحيب والأنين، والراعي الذي حولته إلى ذئب. وإلى والد البستاني الذي حولته إلى ضفدع. فأكثر جلجامش من شتائمه لها وقال:

«أنت لست إلا موقد حجر مطفأ بالبرودة..

وباب لا يصد ريحاً ولا نسائم الشمال..

أنت ذلك الذي يُغرق من ينقذه

أنت الحذاء الذي يَعُضُ صاحبه!».

وبعد أن اغتاظت وصدمت إلى درجة الموت، ذهبت عشتار باكية إلى آنو طالبة منه أن يبعث بثور السماء كي يدمر أوروك ويقتل جلجامش. وغار الثور البهيم على المدينة وراح يمزق مئات الجند، عندما وصل أنكيدو وأمسكه من قرنيه ثم من ذيله، وانهال جلجامش عليه ضرباً بالسيف «في العنق وبين القرنين والحارك، ثم إقتلع قلبه وقدمه إلى شمش وألقى بفخذيه أمام اشتار.

وتعقدت الأمور، ولم يعد باستطاعة أحد تحمل المأساة سوى الآلهة، التي تقرر أنه يجب أن يموت أحد البطلين! فكان الموت من نصيب أنكيدو بعد أن مرض، ولعن

العاهرة والصياد، حالماً «ببلاد اللاعودة». وبكاه صاحبه جلجامش خلال سبعة أيام وسبع ليال «حتى إن الأشعار تساقطت من أنفه!».

كان فقدان صديقه أنكيدو مؤلماً، وأثار في أعماقه الهلع والخوف. فقد واجه جلجامش ملك أوروك السعيد الموت البشع للمرة الأولى. هل من الممكن أن يختفي صديقه هكذا؟ أما كان من الممكن أن ينجو من مصير الإنسان؟

«أهيم في البادية، والموت لا يقهر.

ما جرى لصديقي يوسوسني..

كيف لي أن أسكت، وكيف لي أن أصمت..

وصديقي الذي أحببت قد صار صلصالاً؟

وأنا.. نفسي ألن أصير مثله وأستلقي..

كي لا أقوم بعد ذلك؟».

يتذكر أوتنبشتيم في هذه اللحظة، الإنسان الذي نجا من الطوفان فقرر أن يذهب إليه، ويأخذ منه سر الخلود. وانطلق في رحلة طويلة قادته أولاً إلى الجبل القاتم والشمس الغاربة، محروساً برجال على هيئة عقارب قاتلة. ولحسن الحظ أن سمعته كبطل وأصوله المقدسة قد أثرت بهم لدرجة أنهم تركوه وهم معجبون به، يمر في نفق طويل ينتهي إلى حديقة عجيبة شجرها من الأحجار الثمينة. ثم يقابل سيدوري Siduri «الغانية التي تقيم على شاطئ البحر» فتنصحه أن ينسى أحزانه ويفرح بالحياة:

«أنت يا جلجامش ليكن داخلك وفياً...

سلم نفسك للفرح ليل نهار..

واطرب كل يوم..

وانظر إلى الطفل الذي يمسك بيدك..

ولتبتهج محبوبتك على صدرك..

هذا ما يمكن للإنسان أن يفعل!».

وتحت إلحاح جلجامش تدله الغانية على مكان أوتنبشتيم: تعثر على الشاطئ الآخر من بحر خطر لا يمخره إلا شمش لأنه ملئ «بمياه الموت». إلا أن بطلنا لا

يخاف ولا يتردد. فيجند لخدمته أورشانابي Urshanabi بحار السفينة، ويمخر البحر ويقابل أوتنبشتيم أخيراً الذي يذكر له قصة الطوفان. ولكن هل يستطيع أن يفعل شيئاً من أجل جلجامش ؟ أجل، إنه يستطيع أن يحصل على شجرة الحياة، إنها شجرة شائكة وتنمو في أعماق البحر، فهي التي تجعله أبدياً. حينئذٍ، يربط جلجامش قدميه بأحجار ثقيلة . كما يفعل صيادو اللؤلؤ المعاصرون في الخليج العربي . ويغوص في الماء ويقطف ثمار الشجرة. ولكن للأسف! وهو في طريق عودته، وبينما كان يستحم في إحدى الآبار، وإذا بحية تخرج من الأرض وتستولي على الثمر وتختفي، وهكذا فإن جلجامش «الذي رأى وعاش كل شيء» (شاناجبا إمورو Sha nagba Imuru العنوان الآكادي لهذا الشعر) لمن يكون بعد الآن خالداً. وكما قالت له الغانية:

«لن تعثر على الحياة التي تطلبها.

عندما خلق الله الإنسان..

أعطاه الموت..

وأبقى بين يديه الحياة».

إنها الخاتمة التي تلتقي مع نهاية أوتنبشتيم:

حيث تقول الملحمة:

لنبنا بيوتنا للأبد؟

سيرتفع النهر دائماً وسيحمل معه الطوفان؟

والحشرات لن تخرج من شرانقها..

سوى للحظة كي ترى وجه الشمس..

ومنذ الأيام السحيقة.. لا شيء يدوم..

وكم يتشابه النائم والميت»!..

5 . خلاصة:

لا شك بأن ملحمة جلجامش من شعر كتاب كبار عصرتهم التجارب والأفكار منذ ذلك الزمن البعيد، فأعطوا تجربتهم في الحب والصداقة والشجاعة والإخلاص. وحاولوا علاج مشكلة الموت. وهي مشكلة حضارات الشرق والعالم قديماً وحديثاً. إلا أنهم لم يتوصل إلى نتيجة حاسمة. أما بطل الملحمة جلجامش، فلعله قد وجد كملك ذات يوم، وكان موضع الهام لمعاصريه أو لأحفاده، ولربما حكم في فترة مبكرة من الألف الثالث في مدينة أوروك، حيث اختلطت الأسطورة بالتاريخ نظراً لعدم توافر النصوص بين أيدينا. ولكن بعد بضعة قرون سوف تدخل التاريخ الموثق. وسوف تختلط رواية جلجامش في الآداب اللاحقة لتكون أساس أساطير وأفكار البشرية حول مشكلة الموت ذلك المصير الذي لم يتمكن الإنسان من فهمه أو التغلب عليه.